﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

[الزخرف: 29 - 30]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

مَـن غَـرَّهُ طـولُ الأمـلِ غَفَـلَ عَن وصـيَّـةِ الـحـقِّ وشُكرِ النِّعم

لمّا أخبرَ النَّظمُ الجليلُ أنَّ إبراهيم الخليل نبذَ التَّقليدَ، وتمسَّكَ بالتَّوحيد، ووصَّى بَنيهِ بالبراءةِ مِنَ الشِّرك، وجعلَها شعارًا لذرِّيَّته: أتبعَ ذلك ببيانِ أنَّ مِن ذرِّيَّته مَن أعرضَ عن وصيَّته؛ فإنَّ قريشًا مِن عقبه، وهم قد سلكوا التَّقليدَ، وأعادوا مقولةَ أهل الضَّلال؛ لأنَّهم اغترّوا بإمهالِ الله تعالى لهم، وإمتاعِه إيّاهم بالنِّعم؛ فأشركوا عِوَضَ أنْ يشكروا[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَتَّعْتُ﴾: (متع) أصْلٌ يَدُلُّ على مَنْفَعَةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خَيْرٍ، والمُتْعَةُ والمَتاعُ: المَنفعَةُ، ومُتِّعَتِ المُطَلَّقَةُ بالشَّيْءِ؛ لأنَّها تَنتَفِعُ بِهِ[2]، وأصلُ المَتْعِ: بُلوغُ الغايَةِ مِنَ الشَّيْءِ، يُقالُ: مَتَع النَّهارُ يَمتِعُ مَتْعًا، أي: بَلَغَ غايَةَ ارْتِفاعِه[3]، والمُتعَةُ: المَنفعَةُ؛ والاستِمتاعُ: الانتِفاعُ[4]، والتَّمتيعُ: الإمهالُ؛ وكلُّ مَوضِعٍ ذُكِرَ فيه (تمتَّعوا في الدُّنيا) فعلى طريق التَّهديد[5]، ويُطلَقُ على التَّعمير، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الشعراء: 205]، أي: أطَلْنا أعمارَهُم[6]، والمقصودُ بالمتاع في الآية: المدُّ في العمر والنِّعمة[7].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 629، وابن جزي، التسهيل: 2/ 257.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (متع).
(3) الراغب، المفردات: (متع).
(4) محمد الأصبهاني، المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث: 3/ 148.
(5) الرّاغب، المفردات: (متع).
(6) الزَّبيدي، تاج العروس: (متع).
(7) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 271.

2) ﴿سِحْرٌ﴾: (سحر) أصلٌ يدلُّ على خَدْعٍ وشِبْهِه[1]، وحقيقةُ السِّحْرِ: صَرْفُ الشَّيءِ عَنْ حَقيقَتِهِ إلى غَيْرِه، فكأنَّ السّاحِرَ لَمّا أرَى الباطلَ في صورَةِ الحَقِّ، وخَيَّلَ الشَّيءَ على غيرِ حَقيقَتِه: قَدْ سَحَرَ الشَّيءَ عَنْ وجْهِه، أيْ: صَرَفَهُ[2]، تَقول العَرَبُ للرَّجُل: ما سَحَرَكَ عَن وجْه كَذا وكَذا؟ أيْ: ما صَرَفَك عَنهُ[3]، والمَسْحور: ذاهِبُ العَقْلِ[4]، والمقصودُ بالسِّحرِ في الآية: الخيالُ الذي لا حقيقةَ له[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مـدُّ الـكـافـريـن بـالـنِّـعـم أشـغـلَـهُـم عن واجب التَّوحيد

بل متَّعتُ المشركين مِن أهل مكة وآبائهم مِن ذرِّيَّة إبراهيم، فمددتُ في أعمارهم، وأمهلتُهم، ولم استأصِلْهم، ووسَّعتُ رزقَهم، فاغترّوا بالمُهلة، وأكبّوا على الشَّهوات، وانصَرَفوا عنِ الطّاعات، واتَّبعوا الشَّيطان، وشُغلوا بالتَّنعُّم عن كلمة التَّوحيد، حتى جاءَهم القرآن ورسولٌ يبيِّن لهم ما يحتاجون إليه مِن أمور دينِهم؛ فلمّا جاءهم الحقُّ وصَفوهُ بالسِّحر، وكفروا به، وأصرّوا على شِركِهم، وأعلنوا تكذيبَهم به صراحةً جهارًا[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ التَّعبير بـ﴿بَلْ﴾:

لِـلـه في خَـلْـقِـه الحكمةُ البالغة

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بحرف الإضراب: ﴿بَلْ﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾؛ وهي هنا للإضراب الإبطاليِّ، فأخبر أنَّه لم يحصل ما كان قد رجاه إبراهيمُ ﷺ مِن رجوع مَن يضلُّ مِن ذرِّيَّته إلى كلمة التَّوحيد؛ فهؤلاء العرب الذين هم ذرِّيَّتُه قد أشرَكوا، وعبَدوا

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سحر).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سحر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سحر).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (سحر).
(5) الخطيب، السراج المنير: 3/ 560.
(6) الهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 238، وجماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 491.

الأصنام، وتقديرُ الكلام: (بل لم يرجع هؤلاء وآباؤهم إلى التَّوحيد، إذ لم يتبرَّؤوا مِن عبادة الأصنام، فتركوا وصيَّة أبيهم عليه السلام)[1].

دلالةُ الموقع البيانيّ للجملة الفعليَّة:

إنَّ الله يُمهِل مَن أسرفَ، لعلَّه يثوب ويتوب

فصَلَ النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ عمّا قبلها؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، سيقت للإجابة عن سؤالٍ عَن مجازاة الله إيّاهُم على تفريطهم في التَّوحيد، وتركِ وصيَّة أبيهم، فهل قدِ استأصلَهُم؟ فأُجيب بأنَّ الله متَّعهم، وأبقاهُم إلى أن يجيئهم رسولٌ منهم بالحقِّ[2].

دلالةُ التَّعبير بالتَّمتيع مادَّةً، وصيغةً:

مِن نِعَمِ الله مَدُّ الأعمارِ والنِّعمِ، وتركُ الاستئصالِ بالذُّنوب

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ التَّمتيع في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾؛ وهو دالٌّ على انتفاعٍ ممتدِّ الوقت[3]، فدلَّ على أنَّه تعالى قد مدَّ أعمارَهُم ونَعَّمهم، فغرَّتهم تلك النِّعَمُ؛ فانشغلوا عن شُكر الله، وانصرَفوا إلى سبيل الشَّيطان[4]، وهو مستعْمَلٌ هنا للدَّلالة على إمهالهم، وعدمِ استئصالهم، وهو ما يدُلُّ عليه حرفُ الغاية في قوله: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾[5]، فهذه اللَّفظةُ تكشفُ عن حالهم في حال الإمهال؛ وهذا ما سيتأسَّسُ عليه موقفُهُم الآتي مِنَ الرَّسول والقرآنِ، وقد نظَم القرآنُ هذا التَّمْتيعَ فعلًا ماضيًا للدَّلالةِ على فَنائِه وزواله، وأنَّ هذا التَّمتيعَ يوشِكُ أنْ يزول بمجيء الرَّسول الحقِّ: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾؛ فإنّ الذُّنوب تُزيل النِّعَم، وتجلبُ النِّقم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 196.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 196.
(3) الراغب، المفردات: (متع).
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 271.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 197.

دلالةُ الإفراد في ضمير ﴿مَتَّعْتُ﴾:

مَدُّ النِّعَم والأعمار مِن خواصِّ نِعَمِ الله تعالى

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ إسنادَ الفِعلِ إلى ضمير المفرد دون ضمير التَّعظيم في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾، ولم يقل: (متَّعنا) كما قال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾؛ لأنَّ التَّمتيعَ يتضمَّنُ إطالةَ العُمر التي لا يقدرُ عليها ظاهرًا ولا باطنًا إلّا الله ﷻ، وأمّا الانتقامُ فقد يجعلهُ بأيدي عباده مِن الملائكة وغيرهم[1].

دلالةُ التَّعبير باسم الإشارة:

تهويـنُ شـأنِ مَـنِ استـهان بالتَّوحيد

عبَّر النَّظمُ الجليلُ باسم الإشارة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾؛ إشارةً إلى المشركين الحاضرين في زمان النُّبوَّة، أي: الذين بحضرتك[2]، وفي التَّعبير عنهم بالإشارة تهوينٌ لشأنهم، وإعراضٌ عن تكريمهم بالخطاب الإلهيّ.

دلالةُ عطفِ الآباءِ على اسم الإشارة:

دوامُ النِّعَمِ مِنَ الجليل لم يَزِد الضّالِّين إلّا إصرارًا

عطَفَ النَّظمُ الجليلُ الآباءَ على اسم الإشارة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾؛ للدَّلالة على امتداد نعمته عليهم، فمدَّ في أعمارهم، وأسبغَ عليهم نِعَمَه، وأعفاهُم مِنَ البلايا والنِّقَم؛ فهم مُمَتَّعون في حياة آبائهم، وبعد مماتِهم؛ فلم يزِدْهم ذلك إلّا التَّمادي في الشِّرك والغرور بالدُّنيا، وأنَّه لم يُعاجلْهم بالعقوبة[3]، فكما فعَل معَ آبائهم مِنَ التَّمتيع والإمهال فعَل معهم، وكما كان مِن آبائهم الغفلةُ والإصرارُ على الكفر كان منهم.

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾، ودلالةُ التَّعبير بها:

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بحرف الغاية ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ للدَّلالة على الغاية مِنَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 417.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 418.
(3) الخطيب، السراج المنير: 3/ 560.

التَّمتيع؛ وهو إمهالُهم مِن عذاب الاستئصال حتَّى يحينَ مجيءُ الرَّسولِ الخاتم[1].

دلالةُ التَّعبير بالمجيء مادَّةً، وصيغةً:

الحقُّ أحقُّ بالقوَّة والظُّهور

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالمجيء في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾؛ تفخيمًا للحقِّ، وبيانًا لظهوره وجلاله؛ ولم يعبِّر بالإتيان؛ لأنَّه مختصٌّ بالتَّعبير عن المجيء بسهولة، أمّا المجيء فيقال اعتبارًا بالحصول، ويقال في الأعيان والمعاني[2]، فدلَّ على حصول الحقِّ وظهوره، وهو مجيءٌ مُلابسٌ للقوَّة؛ وذلك لِما في صوت الجيم مِن دلالةٍ على الجثَّة والجُرم الذي له حدَّة[3]، فالمجيءُ مناسِبٌ لِقوَّةِ الحقِّ؛ وهو مستعارٌ لظهورِ الحقِّ لهم ظهورًا بيِّنًا؛ على جهة الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبَعِيَّة، ويجوز أن تكون الاستعارةُ في الحقِّ مكنيَّةً تخييليَّةً، ونظَم القرآنُ المجيءَ فعلًا ماضيًا للإشارة إلى قيام الحُجَّةِ به؛ فما تلقَّوا مِن الآيات دلَّهُم على الله، وعلى رسالة رسول الله؛ وظهر لهم ذلك كلُّه أكملَ ظهورٍ وأتمَّه.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلۡحَقُّ﴾:

القرآنُ حقٌّ صريحٌ، فما أفحشَ تكذيبَه!

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ الحقِّ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ والمرادُ به القرآنُ الكريمُ[4]، فعبَّر عنه بالحقِّ دون القرآن وغيره تصريحًا بحقِّيَّته وصِدقِه؛ وأنَّ ما فيه مِن حقٍّ بادٍ وجليٍّ، فكان مِن شأنه أن يجذبَهم نحوه، فيُقبلوا عليه، وفي التَّعبير عنه بعنوان الحقِّ يظهَرُ فُحشُ جنايتهم، وغِلَظُ خطأهم؛ إذ وصَفوه بالسِّحر في قوله تعالى لاحقًا: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، ولهذا كرَّر الحَقَّ في هذه الآية.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 197.
(2) الراغب، المفردات: (جاء).
(3) المعجم الاشتقاقي المؤصل: 1/ 265.
(4) الخازن، لباب التأويل: 4/ 108.

بلاغةُ التَّعريف بأل:

جاء لفظُ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ - الذي هو القرآنُ - مُعَرَّفًا بأل في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ و(أل) معناها الكمالُ؛ دلالةً على أنَّ مِن شأنِه أنْ يفرَحَ به الكفّارُ، وأنْ يُقبلوا عليه بكُلِّيّاتهم؛ لأنَّه الكاملُ في حقِّيَّته؛ بمطابقة الواقع إيّاه مِن غير إلباسٍ ولا اشتباهٍ؛ والظّاهرُ في كماله لكلِّ مَن له أدنى لُبٍّ؛ بما عليه القرآنُ مِنَ الإعجاز في نظمِه، وما عليه ما يدعو إليه مِنَ الحكمة مِن جميع حُكمِه، والتَّصادقِ مع ما يعلمونه مِن دين إبراهيمَ ﷺ قبل أنْ يُبدِّلوه، ومِن أمْرِ موسى وعيسى ﷺ مِنَ التَّوحيد[1].

التَّنبيهُ على كمالِه توطئةٌ لبيانِ قُبحِ إنكارِه واتِّهامه

دلالةُ عطفِ (الرَّسول) على ﴿ٱلۡحَقُّ﴾:

عَطَفَ النَّظمُ الجليلُ (الرَّسول) على ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ بالواو الدّالَّة على المغايرة، فدلَّ ذلك على أنَّه جَمَعَ لهم بين الحقِّ وبين الرَّسولِ، تأكيدًا لظهور الحقِّ، وإقامةِ الحجَّةِ، فإنَّ القرآنَ وحدَه كافٍ للهداية، ولكنَّه جَعَل مَعَه رسولًا أمينًا مُبينًا، فكان ذلك مِن تمام النِّعمة؛ بأن بلَّغهم الرِّسالةَ على أتمِّ ما يكون مِنَ البيان والأدلَّة[2].

القرآنُ حُجَّةٌ، والرَّسولُ حُجَّةٌ؛ فما للكُفر مِن معذرةٍ

عِلَّةُ التَّعبير بالرَّسول نكرةً:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عنِ الرَّسول بصيغة التَّنكير في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ وذلك لتفخيمِ الرّسولِ، وتعظيمِ شأنِه، فهو رسولٌ، وأيُّ رسولٍ[3]، وإنَّما نظَم القرآنُ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ معرفةً و(الرَّسول) نكرةً؛ إشارةً إلى أنَّ هذا الحقَّ هو برهانُ نبوَّةِ هذا الرَّسول؛ فهذا الحقُّ يُعرِّفُ بهذا الرَّسول،

كان النَّبيُّ محمَّدٌ قرآنًا حقًّا يمشي على الأرض

(1) البقاعي، نظم الدرر: 23/ 7.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 80.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 45.

ويُصدِّقُه، ويُؤيِّدُه؛ فمجموعُ التَّعريف والتَّنكير يكشفُ عنِ العلاقة بين القرآنِ والرَّسول ﷺ.

سرُّ وصفِ الرَّسول بأنَّه ﴿مُّبِينٌ﴾:

صِـدقُ الرِّسالة والنُّبوَّةِ ظاهِرٌ في نفسِه لا يُحوِجُه بُرهانٌ

وصَفَ النَّظمُ البليغُ الرَّسولَ بالإبانة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه بيَّنَ الرِّسالة، وأوضَحَها بما أظهَرَ مِنَ الدَّلائل والبيِّنات[1]، ووَصْفُه بالمبين يدلُّ أيضًا على أنَّ "أمْرَه ظاهِرٌ في نفسه، لو لم تكُنْ فيهِ آياتٌ مبيِّنةٌ كانت بديهيَّةً تُنبيكَ بالخَبَرِ، وهو مع ظهورِهِ في نفسه مُظهِرٌ لِكلِّ معنًى يُحتاج إليه"[2]، فالغرضُ مِن هذا الوصفِ بيانُ أنَّ الرَّسولَ محمَّدًا ﷺ بلَّغَهُم هذا الحقَّ، وبيَّنَه لهم، وأقامَ الحُجَّة عليهم.

دلالةُ الواو في مفتَتَح الآية:

النِّعمةُ موجِبَةٌ لِـلـشُّـكـر، لا وصفِ الحقِّ بأنَّه سحرٌ

عطَفَ النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ على جُملة الغاية في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ لإفادة التَّعجيب مِن حال تَغافُلِهم؛ أي: قد كان لهم بعضُ العُذر قَبْلَ مجيء الرَّسول ﷺ والقرآن؛ لأنَّ للغفلاتِ المتقادمةِ غشاوةً تُصيِّرُ الغفلةَ جهالةً؛ فكان الشَّأن أنْ يستيقظوا لَمّا جاءَهُم الحقُّ ورسولٌ مبينٌ؛ فيتذكَّروا كلمةَ أبيهم إبراهيم، ولكن لمّا جاءَهُم الحقُّ عقِب ذلك التَّمتيعِ لم يستفيقوا مِن غفلتهم، بل ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ﴾، فأفادَ تعقيبُ جُملة الغاية بهذا القولِ الإشارةَ إلى قُرب زوالِ تمتيعِهم[3]، كما أنَّه أشار إلى أنَّهم قد قابلوا النِّعمَ بالجُحود والكفر، وكان مِن حقِّ ذلك التَّمتيعِ عليهِم أن يُطيعوا اللّه تعالى، ولكنَّهم كذَّبوا وعصَوا[4].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 629.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 418.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 198 - 199.
(4) الخازن، لباب التأويل: 4/ 108.

معنى (لَمّا) ودلالةُ التَّعبير بها:

الإصـــرارُ على الكفر مع ظهور الـحـقِّ مـكـابـرةٌ وعنادٌ

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بـ(لمّا) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ وهي هنا (لمّا) الحينيَّةُ أوِ التَّوقيتيَّةُ، فهي ظرفٌ بمعنى (حين)، وقد تضمَّنت معنى الشَّرط[1]، كأنَّه قيل: (متَّعتُ هؤلاءِ وآباءَهم، فلمّا جاءهمُ الحقُّ عقِبَ ذلك التَّمتيعِ لم يستفيقوا مِن غفلتهم، وقالوا: هذا سحرٌ)، أي: أنَّهم كانوا قبل مجيء القرآن الحقِّ مشركينَ عن غفلةٍ وتساهلٍ؛ فلمّا جاءهم الحقُّ صاروا مشركين عن عِنادٍ ومكابرة؛ فبيَّن بذلك ما صنَعوهُ وقالوهُ عند مجيء الحقِّ، فقد وصفوا القرآن بالسِّحر وكفروا به[2]، ولم يُعلنوا الكفرَ الصَّريح عن إصرارٍ وقصدٍ إلّا بعد ظهور الحقِّ المُلزِم للطّاعة، فبيَّن تعليقُ قولِهم الكفرَ بمجيء الحَقِّ على فُحشِ كُفرِهم وغِلَظِه؛ فإنَّ الإصرارَ على الكُفر عند حلول الحَقِّ وظهورِه دليلُ المكابرة والعناد.

دلالةُ إظهار ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ في محلِّ الإضمار:

في التَّكرار إشارةٌ إلى كمال ظهور حُجَّةِ الحقِّ

كان الظّاهرُ أنْ تُصاغ الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ بإضمار (الحقِّ)، أي: (ولمّا جاءهم قالوا)، أو دونَ ذِكرِ المجيء أصلًا: (فقالوا هذا سحر وإنّا به كافرون) لكونه ذُكر في الآية السّابقة: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ﴾؛ وإنَّما كرَّرَ القرآنُ معنى مجيء الحقِّ ليؤكِّدَ في نَفْسِ المُتلَقِّي المعنى المُكرَّرَ؛ حتَّى لا يقَعَ في نفْسِه أنَّ في هذا الحقِّ نوعَ ضعفٍ أو قصورٍ، ونحو ذلك مِمّا يكونُ سببًا في وصفِهم القرآنَ بالسِّحْر؛ فعلى هذا التَّكرار يتأسَّسُ معنى التَّعجيب مِن ترتيبهم القولَ بأنَّه سحرٌ، والكفرِ به على مجيء الحقِّ.

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 80.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 634.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(القول) مادَّةً، وصيغةً:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بفعل القول في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ وذلك لبيان أنَّهم جَهَروا بعقيدتهم، فجهَروا بذلك القول، وأعلنوا كُفرَهم بالقرآن، فبيَّن أنَّهم بِصُدور هذا القول عنهم قد صاروا مُشرِكين عن إصرارٍ وعِنادٍ ومكابرةٍ بَعدَ أن كانوا مشركين عَن غفلةٍ وتساهُلٍ قبل مجيء الحقِّ[1]، وجاء فِعلًا ماضِيًا تنبيهًا على أنَّ هذا القولَ مذهبُهم في الاعتقادِ، يُؤخَذُ ويُنقَل عنهم، ويُعرِّفُ بهم، ويدُلُّ عليهم.

إعلانُ الكفر إصرارٌ على الضَّلال بعد طول الغفلة

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة:

عبَّرَ الكُفّارُ عَنِ القرآنِ باسم الإشارة الدّالِّ على القرب في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ﴾، وذلك للتَّهوين منه، وبَيانِ ازْدرائِهم له، مع تنبيه مُخاطِبيهم على كون القرآن بهذه الصِّفة، بهاء التَّنبيه في ﴿هَٰذَا﴾.

عِلَّةُ وصْفِهِم القرآنَ بلفظ (السِّحر):

نقَلَ النَّظمُ الجليلُ وصْفَهم القرآنَ بالسِّحر في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ وذلك لأنَّهم أرادوا نقضَ الحقِّ بأن زعموا أنَّه خيالٌ لا يُطابِقُ الواقع، فهو ليس حقًّا، ولا حقيقةَ له كما زعموا[2].

لا سبيلَ لنقضِ الحقِّ إلّا بنسبته لِما لا يُعلَم شأنُه

سرُّ تنكيرِ (السحر):

جاء لفظُ (السِّحر) نَكِرَةً، تفخيمًا له، وتهويلًا، وتعظيمًا؛ فهو خطرٌ عظيمٌ على مَن يتلقّاه؛ وهذا في الحقيقة إنَّما يدلُّ على كمال القرآنِ؛ فقد سُقط في أيديهم، فما وجدوا شيئًا يتَّهمونهُ به إلّا نقْضَ أخصِّ أوصافِه مِن أنَّه الحقُّ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 199.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 419.

بلاغةُ الواو ودلالةُ التَّعبير بها:

التَّفنُّنُ في رفضِ القرآن بإعلانِ الكُفر والإصرارِ عليه

عطَفَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ على الجملة في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ﴾؛ لأنَّها مقولةٌ أخرى مِن مقولات الضّالّين المُصِرِّين على ضلالهم، أي: (إنَّهم قالوا: هذا سحرٌ فنحن لا نلتفتُ إليه، وكذلك قالوا: إنّا به كافرون سواء كان سحرًا أم غيره)، فهو ارتقاءٌ مِن وصْفِه بالسِّحر إلى إعلانِ الكُفرِ به على أيَّة حال؛ سواء كان حقًّا، أو سحرًا كما وصفناه[1].

دلالةُ التَّأكيد في سياق هذه الآية:

أهلُ الكفر يسعَون إلى إخفاء حَقِّيَّة القرآن بكلِّ وجهٍ

أكَّدَ النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ للدَّلالة على إصرارهم على الكفر، فأرادوا بذلك أن يُؤَيِّسوا النَّبيَّ ﷺ مِن إيمانهم به، وتركِ كُفرِهم وشركهم، وليُقاوموا ما ثبتَ في نفوسهم ونفوسِ غيرهم مِن أنَّ القرآنَ ليس بسحر؛ فقد عرَفوه قرآنًا عربيًّا مِن عند الله، ولكنَّ الظّالمينَ بآياتِ الله يجحدون[2].

دلالةُ التَّعبير بالكفر مادَّةً، وصيغةً:

سَتر الحقِّ ونفيُ حَقِّيَّته وصْفٌ ثابتٌ في الضّالّين

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بلفظ الكُفر في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ للدَّلالة على جحودهم وسَترِهم حقِّيَّتَه، أي أنَّهم مُنكِرون له وجاحدون[3]، وجاء التَّعبيرُ بصيغة اسم الفاعل للدَّلالة على ثبوت الوصف لهم، فَهُم عريقونَ في الكُفر وسَترِ الحقِّ، حتَّى لا يعرفَه أحدٌ، ولا يكونَ له تابعٌ[4].

الغَرَضُ مِن جملة الخبر:

الإصرارُ على الكفر في معرض الحقِّ أمرٌ عجيبٌ

أخبر النَّظمُ الجليلُ عَن موقف الضّالِّين مِنَ القرآن الكريم في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 199.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 199.
(3) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/ 299.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 419.

قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ وذلك للتَّعجيب مِن غفلتهم وحالِهم فيها؛ فإنَّهم قبل مجيء النَّبيِّ ﷺ إليهم قد يُعذَرون؛ لِما تطاوَل عليهم الأمَدُ مِنَ الغَفَلات، ولكنَّهم بعدَ مجيئه كان ينبغي لهم التَّذكُّرُ؛ لوصيَّة إبراهيمَ عليه السلام، ولكنَّهم أصرّوا واستكبروا استكبارًا؛ فجيءَ بالخبر للتَّعجيب مِن حالِهم هذا، لا في إفادةِ صُدور هذا القول منهم؛ وذلك لأنَّه معلومٌ لَهُم وللمسلمين[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 198.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والخمسون،
سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 53 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-644-66-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 53 : المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-644-66-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4811073 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"